مدرسة

محمد صلى الله عليه وسلم

جهاد التُربانی

دار التقوى

OlxBooks.com

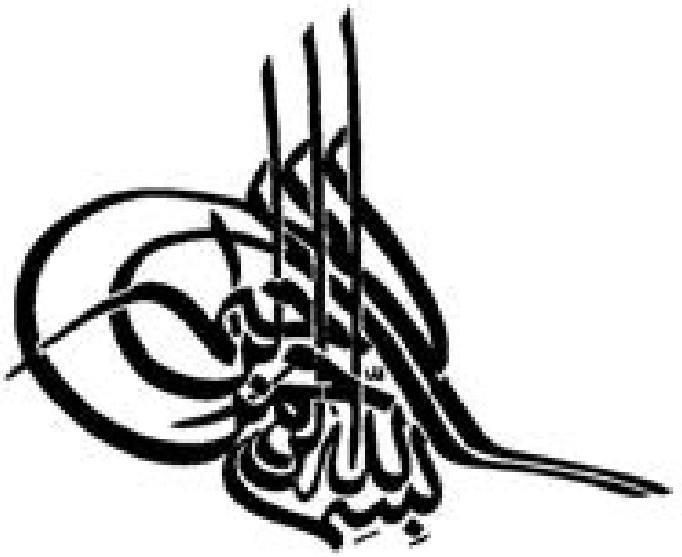

OlxBooks.com

العودة إلى لحظة الابتسامة الأخيرة

«فكشَف النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ سِترَ الحُجرَةِ، ينظُرُ إلينا وهو قائمٌ، كأن وجهَه ورقةَ مُصحَفٍ، ثم تبسَّمَ يضحَكُ»(1)

في فجر يوم الاثنين الثامن من شهر يونيو من عام 632 للميلاد الموافق الثاني عشر من شهر ربيع الأول من عام 11 للهجرة، فوجئ الصحابة الذين كانوا يصطفون في صلاة الفجر برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهو واقف يكشف ستارة حجرته التي كان ضريح الفراش فيها، فقد غاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عن صحابته لعدة أيام قبل ذلك بعد أن صار عاجزًا عن الصلاة بهم من شدة الآلام التي انتابته نتيجة لمرض شديد الوطأة ألمَّ به، وقد وصل الحال به لدرجة أنه كان يغمى عليه عدة مرات في اليوم الواحد،

---

(1) صحيح البخاري.

OlxBooks.com

وهو الأمر الذي دفعه لكي يختار صاحبه أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليكون إمامًا على الناس في الصلاة بدلًا عنه، وما أن كشف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ستر حجرته حتى ألقى على أصحابه نظرة بوجه مشرق، ثم تبسم بعدها ضاحكًا وهو ينظر إليهم، فلما رأى الصحابة ذلك أصيبوا بالدهشة من شدة الفرح، فأخذ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرجع إلى الخلف ليترك مكان الإمام لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ولكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أشار على أصحابه أن يبقوا على ما هم عليه وأن يتموا صلاتهم، ثم أرخى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ستارة حجرته، ليكمل الصحابة صلاتهم، وبعد الصلاة انصرف الناس إلى شؤونهم وهم سعداء بعد أن اعتقدوا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في طريقه إلى الشفاء، ولكن الشيء الذي لم يكن يعلمه الصحابة وقتها، أن تلك الابتسامة المشرقة التي ارتسمت على وجه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهو ينظر إليهم، كانت هي لحظة الوداع الأخير!

ربما يستغرب القارئ الكريم من السبب الذي يدفعني لكي أبدأ الكتابة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالمشهد الأخير من حياته،

OlxBooks.com

فبعد لحظات قصيرة من هذا اللقاء الخاطف مع صحابته، وبالتحديد في ضحى ذلك اليوم، انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربه من تلك الحجرة التي أطل منها على أصحابه، والحقيقة أن سبب اختياري لهذه النهاية لتكون البداية التي أنطلق منها لكتابة هذا العمل الأدبي، يكمن في تلك الابتسامة المشرقة التي ارتسمت على وجه رسول الله ﷺ في تلك اللحظة، تلك الابتسامة التي تختصر سيلًا من المعاني الإنسانية التي يصعب شرحها بالكلمات أو العبارات، فالمتأمل في تلك اللحظة الفاصلة في حياة أي إنسان يدرك هول ذلك الموقف الإنساني وما قد يرافقه من شعور بالقلق على مستقبل من يتركهم الشخص من بعده، إن كانوا أبناءه أو تلاميذه أو غيرهم ممن كان مسؤولًا عنهم في حياته، فما بالك بشخص مثل رسول الله ﷺ في آخر عهد له بالدنيا تاركًا خلفه مسؤولية الإنسانية بأسرها؟!

لا شك أن الأمر لم يكن هينًا أبدًا على رسول الله ﷺ، وأن الحمل كان ثقيلًا للغاية، وأن التفكير في مستقبل العنصر البشري كان يشغل عقله، وأن المرض قد بلغ منه مبلغه، ولكنه

OlxBooks.com

وبالرغم من كل ذلك اختار أن يقف على قدميه ليلقي على أصحابه نظرة الوداع بوجه مشرق كأنه «ورقة مصحف» على حد وصف الصحابي أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي نقل الحديث بلفظه الأصلي[1]، ثم يتبسم ضاحكًا وهو ينظر إليهم في مشهد إنساني يصعب وصفه، لا نعلم يقينًا إن كان الألم قد اختفى مؤقتًا في فجر ذلك اليوم، أو أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان ما يزال يتألم بالفعل من وطأة المرض في ذلك الحين، ولا نعلم إن كانت هناك طاقة مفاجأة قد سرت في جسده مكنته من النهوض من فراشه، أو أنه تحامل على نفسه لكي يقف على قدميه ليودع أصحابه الوداع الأخير دون أن يشعرهم بما يعانيه في داخله، ولا نعلم بالتحديد سر تلك الابتسامة العجيبة التي ارتسمت على وجهه، فلعلها كانت ابتسامة الوالد المحب وهو يودع أبناءه قبل الرحيل، أو ابتسامة المعلم الفخور بتخرج تلاميذه الذين رافقهم على مدار سنوات طويلة، أو ربما كانت ابتسامة القائد الذي يرى أتباعه وقد ينظمون صفوفهم بعد غيابه، قد تكون هذه الأمور مجتمعة أو بعضها أو غيرها هي سبب

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم.

OlxBooks.com

في تلك الابتسامة، لا نعرف بالتحديد ماذا كان يدور في ذهن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في تلك اللحظة، ولكن الشيء المؤكد أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان ينظر إلى أصحابه ويبتسم وهو مطمئن على رسالته من بعده، لأنه كان يدرك تمام الإدراك أنه قد أنجز مهمته على أتم وجه، وأنه قد ترك للإنسانية منهجًا عظيمًا وواضحًا يكفل لها كل أسباب السعادة والتقدم، وأن أصحابه هؤلاء سيحفظون هذا المنهج بإخلاص، وسينقلونه بعد ذلك بكل أمانة إلى باقي بني الإنسان.

وبالفعل...

لم تمضِ على وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ سوى سنوات قليلة، حتى تمكن المسلمون من إنشاء حضارة إنسانية غاية في الرقي والجمال على مناطق شاسعة من الكرة الأرضية امتدت مساحتها من شرق آسيا عند سلسلة جبال الهيملايا على حدود الصين وحتى غرب أوروبا عند سلسلة جبال البرانس بين شبه الجزيرة الأيبيرية وفرنسا، ليتمكن المسلمون خلال فترة زمنية وجيزة من توحيد أراض أكبر بمرتين ونصف من أقصى حد وصلت

OlxBooks.com

لـه إمبراطوريـة رومـا، ليبنـي المسـلمون حضـارة إنسـانية عظيمـة متعددة الأعراق والقوميات واللغات، فأضحت بغداد درة مدائن العالم، وباتت قرطبة جوهرة أوروبا المتلألئة في قرونها المظلمة، وأشعت منارة تمبكتو العلمية لتنير صحراء أفريقيا الكبرى.

وانتشرت قيم العدل والمواطنة والتسامح بين المسلمين وغيرهم ممن كانوا يعيشون معهم في دول المسلمين المختلفة، ولم يقتصر الأمر بأن يحافظ المسلمون في مناطق حكمهم على سلامة أقدم الكنائس الموجودة على وجه الأرض، بل تعدى الأمر ذلك لتصبح مدن شمال أفريقيا المسلمة في القرن السادس عشر ملاذًا لعشرات الآلاف من المضطهدين اليهود الذين فروا من محاكم التفتيش الإسبانية، وفي نفس الوقت عمل المسلمون على تطور العنصر البشري من خلال قيادتهم لحركة التجارة العالمية لما يقرب من ألف عام، فلم يكتفوا بنقل البضائع التجارية بين الشرق والغرب، بل نقلوا معها أيضًا العلوم الإنسانية المختلفة التي كانت الأساس الذي استندت إليه الحضارة الغربية الحديثة في قيامها، هذه الحضارة التي بدأت نظريًا مع بداية احتكاك الغرب بالمسلمين

OlxBooks.com

خلال فترة الحروب الصليبية، بعد أن صُدم الغربيون عند رؤيتهم للشرق الإسلامي بمدى اتساع الهوة الحضارية التي فصلتهم عن المسلمين بمراحل، حتى تمكن العالم الإيطالي ليناردو فيبوناتشي «Leonardo Fibonacci» الذي كان يعيش في مدينة بجاية الجزائرية من تغيير تاريخ أوروبا إلى الأبد، فقد استفاد هذا العالم الإيطالي من العلوم التطبيقية الحديثة التي تعلمها من المسلمين أثناء إقامته في مدينة بجاية الجزائرية، وتنقله مع أبيه في التجارة بين تونس والجزائر والمغرب، فغير من مجرى التاريخ في الغرب إلى الأبد، بعد أن نقل إلى أوروبا الأرقام التي كان المسلمون يستخدمونها منذ زمن طويل في شمال أفريقيا، هذه الأرقام التي يسميها الغربيون حتى يوم الناس هذا بالأرقام العربية «Arabic numerals»، علمت على صناعة طفرة علمية كبيرة في أوروبا، ليعتمدوها رسميًا في حساباتهم بدلًا من النظام الرقمي الروماني المعقد الذي كانوا يستخدمونه لقرون، وما زالت الأرقام العربية التي نقلها فيبوناتشي من بلاد المسلمين إلى أوروبا هي الأرقام المعتمدة في النظام العالمي الرقمي الحديث بكل ما يحتويه من أجهزة رقمية متطورة.

OlxBooks.com

فهرس الموضوعات

العودة إلى لحظة الابتسامة الأخيرة 5

التعامل مع الأبناء 36

التعامل مع الأطفال 43

المـــــــرأة 52

الوفاء بالعهود 75

الصـــــــدق 84

أدب الإنصات 110

أدب الاختلاف 119

التعايش الإنساني المشترك مع غير المسلمين 127

المبادئ لا تتجزأ 151

OlxBooks.com

المثابـــــــرة 172

الثبـــــات 196

اختيار الشخص المناسب للمكان المناسب 216

حماية البيئة 233

الرفق بالحيوان 239

كسب القلوب 248

عدم التفرد بالرأي 260

اتساع الأفق الفكري 300

الإدارة الناجحة 314

التحـــــدي 339

الأمل 359

المراجع والمصادر 371

فهرس الموضوعات 381

OlxBooks.com